المقوّمات الأخلاقيّة في شعر لخضر بن خلوف.

د. رمضان محمد
وأ. بن صافي آمال
جامعة تلمسان.

تقديم:

يعتبر الأدب الشّعبيّ أحد أشكال هذه الثّقافة الشّعبيّة؛ وهو الآخر فتح له مجالا واسعا للدّراسة والبحث والتّنظير والتّأسيس له بعدما كان حبيس أفكار إيديولوجيّة خاصّة، فالأدب الشّعبيّ وما يندرج تحته من أشعار وقصص وحكايات وأمثال ونكت وتعابير شفويّة أخرى؛ آيل إلى الانقراض والزّوال والاندثار، لأنّنا في عصر طغت فيه الآلة والتّكنولوجيّا من وسائل سمعيّة وبصريّة وقنوات فضائيّة كثيرة ووسائل الاتّصال بمختلف أنواعها؛ دون أن ننسى الصّحف والمجلات اليوميّة والأسبوعيّة الّتي حلّت محلّ المثال والقصاص والنّكات والمدّاح والشّاعر والرّاوي الشّعبيّ وغيرهم.

إنّ ثقافتنا تزول يوما بعد يوم ؛ تزول بزوال الشّيوخ والرّواة والقصّاصين والشّعراء وكلّهم خزّان لا يتجدّد من الأفكار ومكتبة خامّ لا نعرف قيمتها إلاّ إذا افتقدناها؛ فعلينا أن نسارع في الحفاظ على ما تبقّى منها بالكتابة والتّدوين والدّراسة والتّسجيل بالصّورة والصّوت والتّشهير بثراتنا في مختلف وسائل الإعلام والملتقيّات والمنتديّات على أنّه جزء نعتزّ به من

هويّتنا وكياننا، وبهذا نكون قد حافظنا وحفظنا على ما تبقّى من ذاكرة أسلافنا، ولعلّ أخذ القليل خير من ضياع وترك الكثير.

ومن أبرز فنون الأدب الشّعبيّ: الشّعر الشّعبيّ الّذي كان وسيظلّ يعبّر عن آلام وآمال الطّبقات الشّعبيّة بكلّ درجاتها ومراتبها، يعبّر عن أمانيها وهمومها، عن أفراحها وأقراحها؛ إنّه باختصار نابع من عمق المجتمع نفسه؛ فهو خالد خلود المجتمع، ولقد أخذت دائرته تتّسع بفضل جهود أهل الاختصاص وذوي الكفاءة في هذا الميدان من باحثين وكتّاب وشعراء وغيرهم. والشّاعر سيدي لخضر بن خلوف يعتبر من أهمّ أعلام الشّعر الشّعبيّ الجزائريّ، وقطب من أقطابه؛ ولكن للأسف فإنّ كثير من أبناء هذا الوطن يجهل هذه الشّخصيّة لا يعرفون بأنّه شاعر ومجاهد، وما يعرفون عنه سوى أنّه وليّ صالح.

تعريف الشّاعر:

يعتبر سيدي لخضر بن خلوف من الرّجال الّذين دوّنوا أسماءهم في التّاريخ بمداد كلّما طال عليه الزّمن زاد إشعاعا، وعلى ورق كلّما بلى زاد بياضا، رجال اكتملت فيهم صفات ورثوها عبر الأجيال عن سيّد الخلق محمد عليه الصّلاة والسّلام[1]. امتاز سيدي لخضر بن خلوف بحبّه الكبير لسيّد الخلق أجمعين، وهذا واضح في جلّ أعماله الشّعريّة، ومن خلال تطلّعنا لقصائده نلاحظ أنّه ألهم بذلك منذ طفولته أي منذ سنّه المبكر[2]؛ فراح ينسج قصائد لا تحصى مبيّنا شدّة ولعه وشغفه وشوقه للنّبي حتّى أنعم الله عليه

بالرّؤيا المباركة؛ بعد تعديه الأربعين من عمره وفوزه بالأمانة الّتي أتى بها من عند سيّدي بومدين دفين تلمسان ومن تمّ تفرّغ للعبادة والمدح.

هو لخضر بن عبد الله بن خلوف، وأمّه كلّة بنت سيدي يعقوب الشّريف دفين جبال سيدي موسى نواحي عشعاشة تأكيدا على هذا ما جاء في آخر قصيدة قصّة مزغران[3]:

الله يرحم قايــل الابيـــــــــات لكحل واسم باباه عبد الله
المشهور أسمـــــــه في الأنعات مغراوي جده رســول الله
وأمــه جات من القريشـــــيات اليعقوبية لالا كلـــــــه

ولد سيدي لخضر بن خلوف في أواخر القرن الثّامن الهجريّ، واستخلصنا هذا من قصيدته "الوصيّة"، عاش الشّاعر ما يزيد عن 125سنة تقريبا، والغريب أنّه حدّد تاريخ وفاته بنفسه حيث ذكر ذلك في قوله[4]:

جوزت ميه وخمسة وعشرين سنه حساب وزدت من ورا سني ست شهور
منهم مشات ربعين سنه مــثل الســراب وما بقى مشى في مديح المبرور

ولا شك أنّ سيدي لخضر بن خلوف ينحدر من السّلالة الشّريفة، ويعود نسبه إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، يقول محمد بخوشة: "يرجع نسب سيدي لخضر بن خلوف إلى مولى إدريس الأكبر رضي الله عنه، فهو مغراويّ الأصل، شريف النّسب يلتحق بجدّه عيسى الّذي انتقل إلى منطقة الشّقران ناحية مستغانم، وعليه سلسلة حسب ما ذكرها الإمام السّيوطيّ –رضي الله– عنه "هو عيسى بن الحسن بن اليعقوب الشّريف بن عبدالله بن عمران بن صفوان... بن الحسن البسيط بن عليّ كرم الله وجهه."[5]

ونشأ سيدي لخضر بن خلوف في بيئة تشتهر بخصال حميدة من جود وكرم وحسن ضيافة، وهي قيم مستمدّة من تعاليم الدّين الإسلاميّ، والبيئة لعربيّة المشهورة بخصال العرب الحميدة، وفي هذا يقول محمد بخوشة:"نشأ سيدي لخضر بن خلوف في ناحية من جبال مغراوة الجزائريّة في وسط كريم مشهور بخصال العرب."[6] توفي سيدي لخضر بن خلوف في أوائل القرن العاشر الهجريّ عن عمر يناهز المئة وخمس وعشرين سنة وستّة شهور كما ذكرنا من قبل.

دفن رحمه الله قرب خيمته، وقد حدّد أيضا مكان دفنه الّذي لم يأت بالصّدفة وإنّما عن طريق وصيّة كان أدلى بها لأولاده كما جاء في القصيدة[7]:

احفظوا اوصيتي ديروها تاج الرؤوس يوصيكم الخلوفي بعلم التبـــــين
النخلة المثبتة تلقح من بعد اليبـــوس حذاها يكون قبري يات مسلمين

مفهوم الخطاب :

إنّ مصطلح الخطاب ليس بغريب ولا بجديد في ثقافتنا وفكرنا العربيّين، فلقد عرف العرب هذا اللّفظ منذ أمد بعيد، وفهموه بأنّه مرادف للكلام الوارد في الخطبة؛ بدليل أنّ العرب تمرّسوا فنّ الخطابة، فعرفوا أصولها، ومبادئها، وأحكامها، وكيفيّة صياغتها، وفنيّات إعدادها، فاشتهروا بها، ولمّا جاء القرآن الكريم أورد في عدّة آيات من سوره لفظ الخطاب بصيغة مختلفة كالأفعال والأسماء؛ فلم يعتبر عندهم بالغريب ولا بالجديد. ونذكر من هذه الآيات قوله تعالى: "**وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل**

الخطاب"[8]، وقال أيضا: "**ربّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا**"[9]، وقال كذلك: "**فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب.**"[10] ووردت هذه الألفاظ في مواضع أخرى (خاطبهم، لا تخاطبني (مرّتين)، ما خطبك، خطبكم (مرّتين)، خطبكما ،خطبكنّ ،خطبة النّساء.)[11] ويشير المفسّرون إلى أنّ (فصل الخطاب) الواردة في الآية الأولى هي بمعنى الفصل في الكلام وفي الحكم [12]. وقوله تعالى: "**لا يملكون منه خطابا**" الواردة في الآية الثّانية تعني أنّه "لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه."[13] وقوله في الآية الثّالثة "**وعزّني في الخطاب.**" أي "غلبني."[14] ومعناها غلبه في الحديث والكلام والرّأي.

مصطلح الخطاب كان قد شغل علماء اللّغة ونقاد الغرب، وتوصّلوا به إلى نتائج باهرة، ولقد اهتمّ العرب بالمصطلح قبلهم؛ غير أنّهم توقّفوا عن البحث، وتطوير مدلوله، حيث افتكّ الغرب منهم راية البحث والدّراسة، فتوصّل إلى أفكار ونظريّات كانت ولا تزال مرجعا ومنهلا لكلّ البحوث اللّغويّة العربيّة. والخطاب الّذي نعنيه في تعريفنا هذا هو الخطاب الشّعريّ الشّعبيّ، أيّ القصائد الشّعبيّة للشّاعر سيدي لخضر بن خلوف، أيّ هي القصيدة الّتي تحمل عدّة دلالات ولا تقتصر على القراءة الواحدة؛ بل تتعدّد إلى قراءات مختلفة باختلاف المناهج والرّؤية.

-**الأبعاد الأخلاقيّة في الخطاب الشّعريّ الخلوفيّ:** تتجلّى الأبعاد الأخلاقيّة للخطاب الشّعريّ الخلوفيّ في الأبعاد التّالية:

***-البعد السّياسيّ:**

يكشف لنا الخطاب الشّعريّ الخلوفيّ الحياة السّياسيّة الّتي كانت تعيشها الجزائر أثناء الحكم العثمانيّ، وصوَّرَ لنا العلاقة الحميمة الّتي كانت بين الشّعب الجزائريّ والجيش العثمانيّ، فلقد كانت العلاقة طيّبة بين الحكام الأتراك والعامّة من الشّعب؛ حيث أسهم الدّين الإسلاميّ الحنيف المشترك بين هؤلاء وأولئك في تبادل الاحترام والتّقدير والمودّة، وكان الحكم الفصل في عدم خلق صراع بين الثّقافتين، ولقد لعب الدّور الهامّ في تحديد سياسة العثمانيين نحو السّكان في بلاد الجزائر، وكان موقف الجزائريين مسالما باعتبار أنّ العنصر الوافد على البلاد مسلم جاء لإنقاذ السّكان من الخطر الإسبانيّ الغازيّ الّذي كان يهدّد الوطن بعد استنجاد الجزائريين بهم، ولم ينظر الشّعب الجزائريّ إلى هؤلاء نظرة عنصريّة كأجانب جاؤوا لاستغلال خيرات البلاد، بل كحماة للإسلام ودفاعا عن المسلمين وحفاظا على الثّقافة الإسلاميّة. وأثناء هذه الفترة يصوّر الشّاعر المهمّة الصّعبة الّتي أسندت له؛ إنّها جمع القبائل كلّها تحت راية الجهاد والدّفاع عن كرامة الوطن من خطر القوّة الإسبانيّة الّتي كانت تهدّد السّواحل الجزائريّة، ويتكفّل الشّاعر بالمهمّة، ويؤدّيها على أحسن وجه، وجمع القبائل ووحّد الصّفوف ونظّم الجيش، وأعطى الأوامر بصرامة ومن الجزائر العاصمة إلى مزغران يجمع من الجيوش قوّة كبيرة، وكان الانتصار في هذه المعركة الشّهيرة، ومن صور الحياة السّياسيّة نقتطف هذا المقطع من قصيدة مزغران[15]:

ياسايلني كيـــف ذا القصـــة بين النصراني وخيـــر الديـــن

اجتمعوا في برهـــم الأقص بجيش قوي جـــاو معتـــمدين

ترى سفون الــروم محترسه صبحوا في المرسى أعداء الدين
خرجوا لك برى خرج الشوم لا خلاو من فــوق وجــه المــا
خيروا البحرية يا الي ملموم تمشــي لك باخــبار مزمومة
يا سايلني عن طــراد الروم قصــة مزغران مــعلومــــــة

***-البعد الدّينيّ :**

إنّ الشّاعر سيدي لخضر بن خلوف كانت له مكانة وثقافة دينيّة؛ أفرزتها بيئته الّتي نشأ فيها وساعدته على تلقي العلوم الدّينيّة بمختلف فنونها حيث حِفْظُ القرآن الكريم، والاطّلاع المكثّف على الكتب في السّيرة والعقيدة والفقه والأدب والتّاريخ، وامتلاك ناصيّة اللّغة العربيّة، والتّفوّق في استعمالها، كلّ هذا يعكسه خطابه الشّعريّ، إذ اصطبغ بصبغة دينيّة في أغلب القصائد. فقد تناصّت قصائده مع نصوص القرآن الكريم:

النّصّ الشّعريّ	النّصّ القرآنيّ	نوع الإشارة
الغافر في النار والعاصي يرجاك حقا الدّيوان، ص:44.	"إن ّالّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنّم خالدين فيها أولئك هم شّر البريّة (6) إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك هم خير البريّة (7) جزاؤهم عند ربّهم	الإشارة لفظيّة: للغافر + النّار+ يخلّد + (الشّطر الأوّل من البيت الشّعريّ)

	جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رّضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربّه"(8) سورة البيّنة	
صلى الله عليك والدّعاء مستجاب والدّعاء للباس كالدّروع الحصينة الدّيوان، ص:66.	"وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّا الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين"(60) سورة غافر	الإشارة المعنويّة: التّذّرع والإخلاص في الدّعاء والله وحده(بالله)، وأن الله سوف يستجيب الدّعاء

وعندما يذكر الدّنيا ينبذها ويمقتها، فيقول:

الدنيا غرارة شماته غرارة مسوده والراجح العقل يوفي قبل الخوف

***-البعد العسكريّ:**

عرف المجتمع الجزائريّ تطوّرات سياسيّة خطيرة خلال الفترة الّتي عاش فيها الشّاعر سيدي لخضر بن خلوف، أهمّها الغزو الإسبانيّ. وكان الشّاعر متشبّعا بالرّوح الوطنيّة، وقاد معاركه في الصّفوف الأولى: فكان بطلا مقاوما، وفارسا مغوارا، ومجاهدا مقداما في معركة "مزغران الشّهيرة". وأطلق الشّاعر على هذه المعركة تسميّة "الغزوة" لأنّها كانت بين الإسلام

والصّليبيّة المفسدة في الأرض، وبين المسلمين والمشركين، وبين الحقّ والباطل دفاعا عن الإسلام والوطن.

يقول الشاعر[16]:

يا فارس من تم جيت اليـوم غزوة مزغران مـــــــــعلومة
ياسيلني عن طراد الـــــــروم قصة مزغران مـــــــــعلومة
ياسايلني كيف ذا القصـــــــة بين النـــــصراني وخير الديـــن

لقد ساهم بن خلوف في الدّفاع عن الوطن والتّاريخ لأحداثه وبطولات شعبه، وكان الشّاعر يغرس الأمل في النّفوس بشعره، ويدعو الجميع إلى الالتفات نحو القضيّة الوطنيّة، والدّفاع عن شرف الأمّة؛ فكان النّصر وكانت البشرى.

أمّا عن تصوّفه فهو شاعر يتقرّب من خالقه بالذّكر والعبادة والزّهد والتّهليل والاستغفار، كما أنّه يتوسّل بكلّ أولياء الله الأخيار من دون أن يستثني أحدا وكان يرجو شفاعة الله بوجوههم الكريمة وعملهم الصّالح الطّاهر. ويبدو أنّه كان متمسّكا بالطّريقة القادريّة؛ حيث يذكر في كلّ مرّة زعيمها عبد القادر الجيلالي، ويسمّيه بعدّة أسماء من بينها: مولى بغداد، شيخ الشّيوخ ... إلخ، وكلّ هذا نابع من روح إيمانيّة فياضّة تشبّعت من حليب الثّقافة الإسلاميّة، كما أنّه شاعر متمسّك بالتّراث الإسلاميّ، وقد وقف عند الأخيار من عباد الله منهم لعظمة أخلاقهم ومن هؤلاء:

1 – عيسى عليه السّلام:

فالشّخصيّة شدّت إليها اهتمام الشّاعر سيدي لخضر بن خلوف؛ حيث يقول مدافعا عنه في قصّة مزغران عندما تلبّس الجيش الإسبانيّ الغازي

مبادئ المسيحيّة والصّليبيّة، وحاد عن ما جاء به سيّدنا عيسى من الحقّ، وعاشوا في أرض الجزائر فسادا وباطلا وخرابا، فبرّأه الشّاعر من طغيانهم وجبروتهم وقهرهم للمسلمين حيث يقول[17]:

وين القصاصين والرهبان اللي يعبدوا سيدنا عيسى

حاشاه روح ربنا الرحمان يتمثل من قوم منجوســة

2-عليّ - كرّم الله وجهه -:

لقد كان الشّاعر بن خلوف يوظّف هذه الشّخصيّة الإسلاميّة في قصائده فعليّ كرّم الله وجهه بإسلامه وإيمانه وصبره وشجاعته وبطولته ونضاله؛ كان مفخرة للإسلام وبقي منارة للأجيال. لقد عرف عليّ كرّم الله وجهه كيف ينتصر للحقّ، وكيف يقهر الباطل، وكيف يكون سيّدا وأسدا في ساحة الحرب، وكيف يتغلّب على الفتن، بما فيها من مدّ وجزر، وقوّة وضعف، من أجل كلّ هذا حظي بمكانة وإبداعات الشّعراء المبدعين، ومن هؤلاء الشّاعر سيدي لخضر بن خلوف الّذي سمّاه بكلّ أسمائه، ووصفه بكلّ أوصافه وذكر محامده وبطولاته مثلما تشير إليه هذه الأبيات:

بجاه سيف مصقول تقهر بيه الاعدا وجاه الإمام حيضر هزام الكفار[18]

بن عـــم الـــــنبـــي صــواب الأمير علي أرضاه ربي أعطى له [19]

وفي ختام هذه المداخلة يمكن أن نقول: إنّ نصوص الخطاب الشّعريّ كشفت لنا عن مكانة الشّاعر سيدي لخضر بن خلوف بين أبناء بلدته، فلقد كان ذا مكانة رفيعة، وله ثقافة واسعة من عدّة نواح، أفرزتها بيئته الّتي ترعرع بين أحضانها في وسط اجتماعيّ محافظ عربيّ إسلاميّ أصيل الّذي تربّع على عرشه بفضل الشّيوخ الّذين علّموه، والحكّام الّذين رفعوه وقدّروا

شأنه، والأولياء والمتصوّفين الّذين أخذ عنهم صفاء القلب والطّاعة والإخلاص. ولقد كان الشّاعر سيدي لخضر بن خلوف دائم الحضور لمجالس الذّكر، وحلقات العلم، كما كان كثير الخلوة للعبادة والاطّلاع على الكتب الدّينيّة والتّاريخيّة، وكتب السّير والعقيدة والتّصوف.

إنّ الخطاب الشّعريّ يكشف الحضور القويّ للثّقافة الإسلاميّة من خلال توظيف بعض قصص الأنبياء، وقصّة الخلق، وقصّة خلق الإنسان، بالإضافة إلى ورود ألفاظ وعبارات وتراكيب من العقيدة الإسلاميّة، وهي متداولة ومعروفة عند العامّة؛ تحفظها هذه الأخيرة من منابر الأئمة وحلقات الدّروس والخطب، كما نجد حضورا قويّا لنصوص القرآن الكريم ونصوص الأحاديث بطريقة مباشرة أوغير مباشرة بذكر بعض معانيها أو التّلميح إليها، أو عن طريق التّضمين (ذكر مضمون الآية أو الحديث في قالب بيت شعريّ أو مقطع من القصيدة)، وهي قاعدة صلبة استند إليها الشّاعر بن خلوف للتّأثير في المستمع وكسب مشاعره لتلقي خطابه، إلى جانب هذا تمكّنه الفنيّ من ملاعبة اللّغة الشّعبيّة الّتي أحسن استعمالها في قالب شعريّ؛ مسافرا بها إلى جميع أقطار البلاد العربيّة، حتّى إذ سافرنا بمثل هذه القصائد إلى أيّة وجهة عربيّة فَهِمَ الجميع المقصود، وما احتاج القارئ العربيّ إلى القاموس الشّعبيّ الجزائريّ، فخطاب بن خلوف يتعدّى الحدود الزّمنيّة والمكانيّة إلى أزمنة طويلة، ونحن اليوم نبحث في دلالتها ومعانيها إلى أمكنة تتعدّى حدود هذا الوطن إلى حدود جغرافيّة؛ تنطلق من المحيط وتنتهي إلى ما وراء الخليج.

-الإحالات:

1- سيدي لخضر بن خلوف حياته وقصائده ،جمعيّة ترقيّة المبـــادلات الثّقافيّـــة والسّـــياحيّة، مستغانم، الجزء 1، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، ص: 18.

2- نفسه، ص: 18.

3- نفسه، ص: 20.

4- نفسه، ص: 50.

5- بخوشة محمد بن الغوتيّ، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، شاعر الدّين الـــوطن، مطبعـــة الشّمال الإفريقيّ، الرّباط، 1958م، ص:37.

6- نفسه، ص: 187.

7- جمعيّة ترقيّة المبادلات الثّقافيّة والسّياحيّة، ص: 50.

8- سورة ص، الآية: 20.

9- سورة النبأ، الآية: 37.

10- سورة ص، الآية: 23.

11- فؤاد عبد الباقي محمد، المعجم المفهرّس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1945م، ص: 235.

12- ابن كثير الحافظ عماد الدّين أبو فداء اسماعيل القريشيّ الدّمشقيّ، تفسير القرآن الكـــريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الجزء الرّابع، 1982م، ص: 30.

13- نفسه، ص: 465.

14- نفسه، ص: 31.

15- جمعيّة ترقيّة المبادلات الثّقافيّة والسّياحيّة، ص: 167.

16- نفسه، ص: 167.

17- نفسه، ص: 170.

18- بخوشة محمد بن الغوتيّ، ص: 172.

19- نفسه، ص: 113.